

ترجمة مفاهيم السيميائيات السردية في النقد العربي

translation of the concepts of narrative semiotics in the Arab criticism

أ. كريمة بلخامسة*

تاريخ القبول: 2021.05.23

تاريخ الاستلام: 2021.01.20

ملخص: سنحاول في هذا البحث استقراء مفاهيم السيميائية السردية عند الباحثين العرب وسيتم التركيز على أعمال الباحث المغربي "سعيد بنكراد" في كتابه "مدخل إلى السيميائية السردية، وأبحاث رشيد بن مالك في الجزائر من خلال كتابه "البنية السردية في النظرية السيميائية" وكذا أبحاث "محمد الناصر العجيمي" في كتابه "في الخطاب السردى- نظرية قريماس-", والباحث عبد المجيد نوسي في كتابه "التحليل السيميائي للخطاب الروائي" وستبين من خلالهم مدى تجاوزهم مع الطرح الغريماسي في تحديده للسيميائيات السردية ومتابعة فعل الترجمة والاختلافات التي نلاحظها في ترجمتهم لبعض المفاهيم وإظهار انعكاساتها على مستوى النصوص التطبيقية.

كلمات مفتاحية: السيميائية، العلامة، النموذج العاملي، المربع السيميائي، البرنامج السردى.

Abstract: In this study, we attempt to reveal the concepts of the narrative semiotics in the Arab criticism, focusing on the following books: An introduction to the narrative semiotics of Said Ben krad, The narrative structure in the theory of Semiotics of Rachid Benmalek, In the narrative discourse: the Greimas' theory of Mohamed ennacer el ojaimi, and The semiotic analysis of the narrative discourse of Abdelmadjid Noussi, we aim at knowing the response of these writers to the Greimas' approach in terms of defining the narrative semiotics and the difference between them in translating some concepts, and the impact of it on the practical texts.

Keywords: semiotics, the semiotic square, the discursive program, translation.

✦ - جامعة عبد الرحمان ميرة بجاية، الجزائر.

البريد الإلكتروني: belkhamsakarima@yahoo.fr (المؤلف المرسل)

1. مقدّمة: لقد عرفت الساحة النقدية العربية في الفترة الحديثة توجهها نقديا مخالفا وذلك بظهور المنهج السيميائي وانتشار مبادئه وأسسها الإجرائية، وقد كانت الحركة السيميائية دفعا قويا حرك الفعل النقدي العربي وبهذا تزعزعت المسلّمات النقدية التقليدية المعروفة وكان ذلك بظهور بعض الأبحاث التي عملت على التعريف بهذه المدرسة والكشف عن خلفياتها الفلسفية وبسط أسسها للقارئ العربي.

على الرغم من أن "المتتبع للحركة السيميائية في العالم العربي يدرك أنها ظهرت في ظروف تختلف اختلافا يكاد يكون جذريا عن تلك التي رافقت ولادتها في البحوث الأوروبية وهو اختلاف نلمسه على جميع الأصعدة. ذلك أن ولادتها في البحوث العربية تمت عبر عملية قيصرية، وفي جو مشحون بالرفض في أغلب الأحيان والاتهامات المجانية لمن تبناوا هذا التيار ومكتنف بهيمنة التوجه الكلاسيكي في الممارسة النقدية المنجزة بمنأى عن الأعمال الجماعية الضامنة لمصادقية البحث العلمي. وحتى المؤسسة العلمية التي تحولت فيها المعرفة إلى بضاعة لم تكن مهياً لتلقي القيم الجديدة التي يحملها الخطاب النقدي الوافد من الغرب" (رشيد بن مالك، 2001)

ويعدّ هذا الارتباك والرفض الملاحظ في ذهن القارئ العربي أمراً طبيعياً، إذ ليس من السهل مسح المسلّمات النقدية الراسخة في الأذهان مرة واحدة واستبدالها بمشروع نقدي مخالف تماماً كما "أنّ المتصفح للمنشورات الصادرة في المغرب أو في بعض الأقطار العربية الأخرى يدرك بشكل جلي هذا القصور، فغالبا ما تكون هذه المنشورات عبارة عن ترجمة لمقالات أو أجزاء من كتب وأحيانا تعاليق مختصرة عن نظرية أو مجموعة من النظريات... فتظل ناقصة (ومضللة أحيانا) لأنّها تقدم مفصولة عن أسسها الاستمولوجية، وعن المناخ الذي ولدت فيه، الشئ الذي يجعل القارئ عاجزا في أغلب الأحيان عن إدراك الفروقات والاختلافات بين هذه النظرية أو تلك، بين هذا المفهوم أو ذاك. كما لا يدرك كيف أنّ المصطلح الواحد قد ينتمي إلى مدارس متعددة، حاملا مضامين ودلالات متنوعة" (سعيد بن كراد، 2003).

ومن هذا المنطلق فقد كانت أعمال الباحثين العرب المختلفة السبيل الوحيد لتبسيط مفاهيم المدرسة السيميائية في الأذهان وتفعيلها على مستوى التطبيق، وقد لعبت الترجمة دورا كبيرا في توصيل أسس ومبادئ هذه المدرسة إلى المتلقي رغم كل الصعوبات والاضطرابات التي تطرحها. وسيتسنى لنا بهذا معرفة مدى استيعاب الباحث العربي للمنظومة الاصطلاحية لسيميائيات مدرسة باريس وهل أثّرت الترجمة والتناقضات التي تطرحها - في بعض الأحيان سلبا في فهم المجال النظري للسيميائيات والانتقال إلى مستوى التطبيق، لنصل في الأخير إلى معرفة مدى استثمار الباحث العربي، بعد كل هذه السنوات، للمفاهيم السيميائية وهل تجاوزت هذه الآليات الإجرائية مع النصوص

الإبداعية العربية المختلفة على الرغم من اختلاف الفلسفة الفكرية والأيدولوجية السياسية التي أسست لظهورها والخلفية الفكرية والثقافية العربية التي أطرت هذه النصوص في عمقها.

2. الترجمة في الخطاب الأدبي والنقدي: عرف الانسان الترجمة منذ القدم وهي من أقدم النشاطات الانسانية وقد صحب هذا النشاط على مرّ الزمن آراء ونظريات في مفهوم الترجمة ومجالاتها والصعوبات التي تطرحها على المترجمين. فإذا كانت الترجمة "هي إبدال مادة نصانية في لغة بمادة نصانية في لغة أخرى" (يوسف نور عوض، 1977)، والعمل على نقل أو تحويل نص معين من لغة الى لغة أخرى فإن عملية الانتقال والتحويل هذه لا تتم بشكل تلقائي مباشر، وهي " مجال من مجالات الدراسة العلامية (sémiotique) لكون الهدف الذي تتمركز حوله هو نقل المعنى من نظام علامي لغوي معين الى نظام علامي آخر" (يوسف نور عوض، 1977).

ولقد أثارت عملية الترجمة نقاشات عديدة عبر تاريخها الطويل وقد تمحورت في أغلبها حول "الصراع بين الترجمة الحرة والترجمة الحرفية والتناقض بين استحالتها أصلا والحاجة المطلقة إليها" (بيترنيو مارك، (دس)) حيث تطرح الترجمة صعوبات ومشاكل مختلفة وتتعدد المسألة أكثر حين يتعلق الأمر بترجمة الأدب، وي طرح السؤال: هل المطلوب من الترجمة عامة والترجمة الأدبية خصوصا هو المحافظة على لغة وثقافة النص الأصلي أم أن عليها التركيز على المكونات الأدبية ذات الطابع الإنساني الشامل؟

وهذا الخصوص تذهب الباحثة "كريستين ميسون" الى القول بضرورة التعامل مع النص كجزء من الثقافة التي ينتمي إليها "وعليه فإن دور الترجمة حسب هذه الرؤية هو تعريف قارئ لغة الهدف أي اللغة المترجم إليها بثقافة متحدثي لغة النص الأصلية، يعطي قارئ الترجمة القدرة على فهم بيئة النص وسياقه الثقافي" (عبد الله حراصي، www.nizwa.com)، في حين يرى "جون كوهن" -وبمنطقية في الطرح- أن الترجمة عملية تواصلية توحد بين لغتين دون إلغاء المسافة التي تفصل بين الأنا والآخر.

كما يتخذ أمبرطو ايكو موقفا لصالح اللغة الهدف ويذهب الى أن التفكير في الترجمة هي إشكالية تخص اللغة التي تتجه إليها (أي اللغة الهدف) فعلى عاتقها مسؤولية حلّ المسائل الدلالية والأسلوبية التي يطرحها النص الأصلي ويمكن تحديد قواعد الترجمة حسبه دائما على النحو التالي:

-لا يجب فهم النص المصدر حرفيا، ولكن يجب المراهنه على العوالم الممكنة التي يتحدث عنها النص، أي الدخول في عالم التأويل؛

-احترام الحد الأدنى من مبدأ إزالة اللبس في النص المترجم؛

-حفظ التناسبية؛

-أخذ الأفق الثقافي للترجمة في الحسبان.

ويصل "ايكو" الى أن الترجمة الحرفية مستحيلة في النصوص الأدبية ويراهن على كلمة "تقريباً"، ويقرّ أن قول الشيء نفسه مستحيل عملياً، إذ لا يمكن أبداً إيصال كل الإيحاءات الدلالية لكلمة أو لإيقاع أو نبرة في تعبير أو جملة لكن على المترجم أن يجتهد في قول أكثر ما يمكن قوله.

هكذا يجب على المترجم أن لا يتقيّد بالقواعد اللغوية فقط ولكنه يأخذ بعين الاعتبار العناصر الثقافية بالمفهوم الواسع للكلمة، والترجمة لا تتم بين لغتين وإنما بين ثقافتين ومحاولة المترجم إحداث الأثر نفسه الذي أحدثه النص الأصلي في القارئ لهذا فالمطلوب هو إعادة إنتاج الأثر نفسه، ولهذا فكل ترجمة جيدة هي محاولة نقدية من أجل فهم النص الأدبي.

من هنا يتخذ المترجم معنى "الوفاء" كالالتزام بينه وبين النص الأصلي والاستعداد الدائم للتفاوض في كل لحظة على الحلّ الذي يبدو له هو الأصح من أجل الوصول الى عمق النص.

وينبغي أن نشير هنا أيضاً الى أن عالم الترجمة في العالم العربي اليوم يحفل بقدر هائل من الفوضى وعدم التنظيم"، بعدما كانت حركة الترجمة في العصور السابقة والعصر العباسي على الخصوص مزدهرة، فلم تعد كذلك في الفترة الراهنة نظراً لما تعيشه المجتمعات من تراجع وتدني المستوى الثقافي وشهدت حالة من الانحسار والركود والاختناق فأصبحت "الترجمة مهنة من لا مهنة له، فلا يوجد لها قواعد تنظمها لا في مصر ولا في أغلب الدول العربية بمعنى أن كثير من الهواة وغير المتخصصين يعملون في مجالات الترجمة المتعددة دون حسيب أو رقيب، بل إنّ أغلب العمل في سوق الترجمة يقع في يد الهواة غير المتخصصين" (أكرم مؤمن، 2016) ولا نجد هيئات علمية متخصصة تشرف وتتابع عملية الترجمة وهذا ما خلق الفوضى في ترجمة المصطلحات وعدم توحيدها وخلق ترجمات ضعيفة تفتقد الى الدقة والأمانة للنص الأصلي، ويعود هذا الى عدم وجود إستراتيجية واضحة علمية تؤطر فعل الترجمة في الواقع العربي.

3. ترجمة مفاهيم السيميائيات السردية عند الباحثين العرب: تعد أبحاث سعيد بنكراد أحسن مثال على ذلك " لما تتسم به دقة وتمثّل واضح للسيميائية الغريماشية في كتابه "السيميائيات السردية" الذي يعدّ انجازاً مهماً في الدراسات السيميائية العربية، وتكمن أهمية هذا البحث في بساطة خطابه النقدي ومرونته وأصالته ووضوح مضمونه الناجم عن تمثله لهذا التيار في أصوله ومقاصده المنهجية. إنّ هذه الدراسة التي تشتمل على المبادئ الأولية للنظرية السيميائية تندرج ضمن الممارسات النقدية الساعية إلى فضح مكامن السقوط في النظام النقدي التقليدي المبني أساساً على التقيّد بالمسلمات وإصدار الأحكام المسبقة ولئن كانت هذه الممارسات تشكل قفزة نوعية في الدراسات النقدية العربية" (رشيد بن مالك، 2001).

لقد عمد الباحث سعيد بنكراد في كتابه "مدخل إلى السيميائية السردية" الى التعريف بنظرية غريماش واستعراض أهم مبادئها واستقراء أسسها، فهي نظرية تتميز عن باقي النظريات الأخرى في

المجال السردي بخاصية أساسية يمكن تحديدها في "مشكلة المعنى" "مقاربة نص ما لا يكون لها من معنى إلا في حدود طرحها للمعنى كهدف وغاية لأي تحليل. فالتعريف عن المعنى وتحديد حجمه لا ينفصل عن المکانیزمات التي أنتجته. من هنا فالتحليل لا يعني تعيين المعنى بشكل حدسي دون تحديد لسيرورة نموه وموته" (سعيد بنكراد، 2003).

بهذا تتلخص نظرية غريماس في لبها وعمق تشكلها في موضوعها الأساس وهو المعنى وكيفية إنتاجه والشروط المنتجة له وتحديد حجمه وطبيعته، وعلى هذا الأساس فههدف أي تحليل هو البحث عن المعنى وترويضه وإرجاعه إلى العناصر التي أنتجته.

كما يشير إلى شمولية نظرية غريماس في التصور أي قدرتها على التحاور مع عناصر معرفية تنتهي إلى مجالات مختلفة، وكذا قدرتها على استيعاب عناصر تنتهي إلى نظريات سردية أخرى وهذا يكشف عن نواقصها وعن الثغرات الموجودة في داخلها من جهة، كما تقدم تبريرا لقصور النظريات الأخرى من جهة ثانية. وفي كلتا الحالتين تؤكد على ضرورة التكامل بين كل النظريات... (سعيد بنكراد، 2003) ونسجل هنا هذه الروح الانتقادية التي تميّز الباحث في عرضه لهذه النظرية، ولا تتوقف مهمته في مجرد استعراض لأسس السيميائية الغريماسية.

وهكذا وبعد استعراض الأسس المعرفية التي قامت عليها نظرية غريماس والعودة إلى الروافد التي أسهمت في بلورتها (كالإرث الشكلاني بروب، وكلود ليفي شتراوس...) عمل الباحث بنكراد على رسم هيكلها النظري مثلما جاء في أبحاث الناقد غريماس وقد أشار إلى أنّ هدفه ليس البحث في الأصول وتحديد موقع كل إرث داخل نظرية غريماس، فتلك مهمة أخرى ليس مجالها هنا، وإنما ما سنقوم به- مثلما يذهب الباحث- هو "عرض شامل وواف عن هذه النظرية وتحديد موقعها من التيارات المكونة للسرديات المعاصرة، كما سنعمل على بيان مواقع قوتها وضعفه وتحديد الأسس المعرفية التي قامت عليها..." (سعيد بنكراد، 2003).

لقد عمد الباحث إلى تتبع أسس نظرية غريماس وشرحها، بحيث أشار في البداية إلى ملاحظة انتهى إليها غريماس ومفادها " أنّ الذهن البشري ينطلق من عناصر بسيطة لكي يصل إلى خلق موضوعات ثقافية، ويسلك في هذا سبيلا معقدا يواجه فيه إرغامات عليه أن يتجاوزها، واختيارات عليه أن يحدد موقعه ضمنها" (سعيد بنكراد، 2003)

ومن هذا المنطلق وضع غريماس تقسيمه المشهور للسيميائيات السردية إلى التنظيم العميق والتنظيم السطحي وهذا انطلاقا من مبدأ أنّه "إذا كانت البشرية جمعاء تشترك في مجموعة من المضامين (المدركة كثنائيات) فإن كل مجتمع ينظم مضامينه بطرق مختلفة، وسيصبح تحقق البنية المجردة، وفق هذا التصور تخصيصا لبنيات هذا المجتمع وكشف عن خصوصياته. فلا يكفي إذا تحديد سلسلة الثنائيات العامة، التي قد تكون لها القدرة على مدنا بمعرفة حول اشتغال سلوك

اجتماعي ما، إلا أنّها عاجزة على مدّنا بأدوات التمييز بين هذه المجموعة البشرية أو تلك. وعليه فإن التسليم بوجود نموذج عام منظم للسلوك الإنساني، إنّ كان قاعدة صلبة وجسرا نحو الكشف عن خصوصية مجتمع ما، يجب أن يكون متبوعا بإبراز نمط تحققه أو تحقيقاته، ولعل هذا ما يسمح لنا بالحديث عن خصوصية النص وعن تمييزه عن النصوص الأخرى" (سعيد بنكراد، 2003) وعلى ضوء هذا التحديد سنكون أمام تنظيمين مختلفين لنفس الكون الدلالي.

يطرح التنظيم العميق داخله المعنى بصفته العنصر المميّز المسؤول عن أي تمفصل دلالي وسيكون النموذج التكويني أو المربع السيميائي أول أشكال التنظيم الدلالي باعتباره تأليفا تقابليا لمجموعة من القيم المضمونية، وهذه البنية الدلالية البسيطة تحتوي على قدرة قابلة لتوليد سلسلة لا منتهية من العلاقات الداخلية وبعبارة أخرى فإنّها تمتلك القدرة على جعل المعنى قادرا على التدليل.

وإذا سلمنا بأنّ كل موضوع سيميائي يتحدد من خلال نمط إنتاجه، فإن المكونات المتضمنة في هذه السيرورة تتمفصل وفق مسار يقود من العنصر الأكثر تجريدا إلى العنصر الأكثر محسوسية (Greimas, 1979) وعندما نتبع عملية الإثبات والنفي الخاصة بالمضامين فتشير إلى أولى العلاقات التحويلية الممكنة انجازها وطرحها على شكل ملفوظ سردي بوجهيه الانفصالي والاتصالي حينها ستظهر العلاقات الثلاث: التضاد، التناقض والاقضاء، كتحويلات وستقوم هذه التحويلات على نفي مضمون ما، وإثبات آخر وسيطلق الانفصال على تحول النفي وسيطلق اسم الاتصال على تحول الإثبات (سعيد بنكراد، 2003) ويفسر الباحث بنكراد هذه المسألة بمقولة مجردة الاستعباد التي يستخرج منها جميع الإمكانيات الفعلية التي تحتويها (مستعبد(م) حرّ، استعباد(م) حرية..)

أما التنظيم السطحي فيتحدد من خلال النموذج العاملي وهو أساس تشكل النص كأحداث أي كصيغة تصويرية وبعبارة أخرى إنّهُ يمثل شكلا قانونيا لتنظيم النشاط الإنساني أو هو النشاط الإنساني مكثفا في ترسيمة ثابتة رغم تغير عناصر تظهرها، فهو " يجمع داخله كل العوامل المحددة للفعل الإنساني: هدف للفعل، ما يدفع إلى الفعل، المستفيد من الفعل، الرغبة في الفعل، المساعد على الفعل، والمعيق لهذا الفعل" (سعيد بنكراد، 2003)

وإذا كان النموذج العاملي في نظر غريماس هو نتاج عملية قلب للعلاقات المشكلة للنموذج التكويني (المربع السيميائي)، فإنّ أصوله وجذوره تعود إلى أبحاث ماضية وهي نتائج أبحاث بروب، ونموذج سوريو ونموذج تنيير.

يطوّر غريماس نموذجه العاملي في ضوء الدراسات الشكلانية التي درست الحكاية العجيبة، وبالخصوص أبحاث فلاديمير بروب، فقد ذهب إلى أنّ هذا الباحث أوضح مفهوم العوامل دون أن يضع المصطلح نفسه، خاصة عندما وضع الوظائف المتعددة وحددها في سبع شخصيات أساسية وقد

اعتبرها غريماس بمثابة عوامل. ويقول: "إنّ العوامل تمتلك إذن قانونا ميتا لسانيا بالنسبة للممثلين، إنّها تفترض بالإضافة إلى ذلك التحليل الوظيفي، أي التكوين التام لدوائر نشاطها" (Greimas, 1966) بهذا يعمد غريماس انطلاقا من النماذج الثلاثة (بروب، تنيير، سوريو) في تنوعها إلى صياغة الصورة النهائية للنموذج العاملي ويتكون من ست عوامل تأتلف في ثلاث علاقات تشكل محاور هي كالتالي:

محور الرغبة: هو المحور الذي يربط بين الذات والموضوع، وتشكل الفئة العاملية ذات/موضوع العمود الفقري داخل النموذج العاملي، إنّها مصدر للفعل ونهاية له، فهي مصدر الإرسال لأجل إثبات أو إلغاء حالة أو خلق حالة جديدة. ولا تتحدد الذات الفاعلة إلا بعد دخولها في علاقة مع الموضوع مثلما لا يتحدد هذا الأخير إلا في علاقته بالذات ويمكن إعتبار الموضوع كموقع إشكالي يكتنفه نوع من الغموض نتيجة انتمائه إلى محور الرغبة ومحور الإبلاغ في الوقت نفسه.

محور الإبلاغ: هو عنصر الربط بين المرسل والمرسل إليه، أي من دافع على الفعل ومن مستفيد منه وهما يقعان على المستوى الذهني للفعل، ولا يتحددان إلا من خلال موقعهما من حالي البدء والنهاية كجزأين سرديين مؤطرين لمجموع التحولات المسجلة داخل النص السردية.

محور الصراع: هو ما يجمع بين المعيق والمساعد ويحدد "غريماس" هذه الفئة الثالثة المشكلة للنموذج العاملي في ما يسميه بالصراع، فالبطل في الحكاية الشعبية يقوم برحلة بحث عن موضوع قيمة ويصادف في طريقه أشخاصا أو حيوانات يقومون بمساعدته لتحقيق موضوعه أو معيقين يحولون دون وصوله لتحقيق هدفه النهائي.

وإذا كانت هذه الصورة المبسطة التي تصوّرها الحكاية الشعبية للمساعد والمعيق، فإن الأمور تتعدد أكثر مع النصوص الإبداعية المعاصرة.

يضعنا هذا النموذج بعلاقاته الثلاث أمام العلاقات المشكلة لأي نشاط إنساني كيفما كانت طبيعته، وبعبارة أخرى فإنّ هذا النموذج يشكل بطريقة ما تعريفا لمعنى الحياة.

ودرس غريماس في التنظيم السطحي أيضا البرنامج السردية وهو صيغة تركيبية منظمة للفعل الإنساني بشكل صريح أو ضمني وستكون الصيغة التركيبية لهذا البرنامج هي حالة انفصال تقود إلى حالة اتصال أو العكس.

هكذا فقد عمل الباحث سعيد بنكراد على الوقوف على أهم الأسس الإجرائية التي وضعها غريماس في نظريته وشرح العناصر التي تكوّنها وربطها بمنطلقاتها الأولى وجذورها الأصلية، وقد سجل الباحث على نفسه النقص الفادح الذي وقع فيه وهو عدم تدعيم بحثه بنصوص تطبيقية توضح وتبسط المسائل النظرية المعقدة على القارئ.

كما أسهم الباحث محمد الناصر العجيمي في بحثه الموسوم "في الخطاب السردى- نظرية قريماس- في ترجمة بعض أسس نظرية غريماس إلى القارئ العربى وتفعيل أسسها الإجرائية على النصوص الإبداعية العربية، حيث قام بالوقوف عند أهم آلياتها الإجرائية فقط ، - وهذا خلافا لما رأيناه عند سعيد بنكراد الذي كانت دراسته مفصلة ووافية فقد تركز عمله في البداية على دراسة المستوى السطحي للخطاب وذلك بدراسة النموذج العاملي من حيث هو نظام ثابت يقوم على ثلاثة أزواج من العوامل هي: المؤتى/المؤتى إليه، والفاعل/الموضوع والمساعد/المعارض.."

وعاد بالتفصيل إلى العلاقات التي تجمع بين هذه العوامل مدعما في كل مرة شروحاته النظرية بأمثلة تطبيقية من نص "الأرنب والفيّلة"، فالعلاقة بين الفاعل والموضوع هي بؤرة النموذج العاملي و" الصلة بين العاملين تعالقية وإنّ أحدهما موجود دلاليا للآخر وبه، وليس من الضروري أن يكون الفاعل كائنا إنسانيا كما لا يتحتم أن يكون الموضوع شيئا جامدا" (محمد الناصر العجيمي، 2006). وتنتظم الوجدتان العاملتان في سياق العلاقة بين الفاعل والموضوع وتحدد وظيفة المساعد في تقديم المساعدة للذات الفاعلة من أجل تحقيق مشروعه العملي، أما المعارض فيقف عائقا دون تحقيق الفاعل لموضوعه.

أما العلاقة بين "المؤتى" و"المؤتى إليه" فيوحي حضورهما في الخطاب السردى -حسب غريماس- بوجود عالم مؤسس على منظومة من القيم يحكم بمقتضاها على الأفعال سلبا أو إيجابا فتحلّ في مرتبة المحرّم أو المباح أو الواجب. والوظيفة الموكولة إلى المؤتى تتمثل في المحافظة على هذه القيم وصيانتها وضمان استمرارها وذلك بتبليغها إلى المؤتى إليه وإملائها عليه" (محمد الناصر العجيمي، 2006).

كما درس محمد العجيمي الأنموذج العاملي في حركيته ويقصد به البرنامج السردى، إذ أنّ السرد يقوم في أساسه على التحوّل من طور إلى طور والانتقال من حال الى حال بحيث يكون التحويل اتصالي يتجسد في صورة الامتلاك وتحويل انفصالي تتمثله في صورة الاستلاب وقد تتبع أنواع هذه التحويلات وجزئياتها من خلال نماذج تمثيلية من نص "الأرنب والفيّلة ودرس المكيفات المساعدة في انجاز الفاعل لفعله وهي: الشعور بوجود الفعل، والرغبة في الفعل والقدرة على الفعل.

وبحث في إطار دراسته للمستوى السطحي أيضا عنصر المكون التصويري، حيث يصبح الخطاب تصويريا عندما يشحن الموضوع بشحنة دلالية تخوّل للذات أن تدركه من حيث هو صورة تمثيلية. وفي دراسته للمستوى العميق شرح الباحث عنصر "المعنم" (Séme) كونه الوحدة الدلالية الصغرى، حيث يكتسب دلالته من علاقته مع وحدات معنمية أخرى تتشكل ثنائيات معنمية مبنية على التقابل يجمعها عنصر ثالث هو المحور الدلالي.

فالمحور الدلالي الجامع للثنائية الدلالية: الحياة-الموت مثلا هو الوجود، وهذا ما وضّحه غريماس في المربع الدلالي، حيث عمل على تحديد ميكانيزماته واستقراء حركية المعنى وتحوّله من خلال نوعية العلاقات التي تجمع أركانه وهي: التراتبية، والتناقض فاحدى الوحدتين تنفي الأخرى والعلاقة الضدية يقابل أحدهما الآخر ويعاكسه وبهذا يتم اكتشاف الدلالة العميقة المؤسسة للنص والمتحكمة في بنيته السطحية.

هكذا استطاع الباحث محمد الناصر العجيجي تقديم أهم المبادئ المؤسسة لنظرية غريماس والتركيز بالخصوص على المستويين السطحي والعميق في الخطاب السردى متجاوزا بذلك كل العناصر الإجرائية المثيرة للجدل والغموض واكتفى في عرضه بالشرح الدقيق للنموذج العاملي في ثباته وحركته، والمربع الدلالي.

وقد خلص رغم هذا الاختصار الشديد في الطرح إلى الإشادة بالنظرية وبطاقمها الإجرائية الفعالة، وإمكانية استثمارها في دراسة نصوص متنوعة مختلفة. وختم بحثه بدراسة تطبيقية لنص الأرناب والفيلة من كتاب كليلة ودمنة محاولا تجسيد هذا الأساس النظري في هذا النص.

واختصر الباحث "رشيد بن مالك" الحديث في نظرية غريماس في كتابه: "البنية السردية في النظرية السيميائية على المكون السردى والآليات التي تحكمه والقواعد التي تضبطه بدءا من التحديد النظري للبرنامج السردى الذي يستند إلى تحليل مكونات البنية السردية وفحص العلاقات الموجودة بين الفاعل والموضوع والتي ترتب في وجودها إلى مجموعة من الحالات والتحويلات التي تكون في تواليها نظاما قادرا على كشف بنية المكون السردى" (رشيد بن مالك، 2001).

وقد فصلّ البحث في مفهوم الحالة والتحويل التي تربط الفاعل بالموضوع، واستنادا إلى كتاب غريماس "المعنى" يستعرض الباحث جميع حالات التحوّل وجزئياتها الدقيقة بين الفاعل وموضوعه، وتكتسي العلاقة: فاعل/موضوع أهمية بالغة، بحيث تنبني عليها طموحات الفاعل، وفي إطارها تتوزع الأدوار، وعلى متنها تتولد الرغبات ويشتدّ التنافس والصراع. وواضح من هذا الكلام أنّ القيمة لا تتحقق في تفردها ولا توظف لذاتها بل تستمد وجودها من هذه الرغبة الدفينة التي تملك كيان الفاعل وتقوده إلى الصراع من أجلها وتملكها. ومن هنا جاء تعريف الموضوع بوصفه حيزا توظف فيه قيم تقترن بالفاعل أو تنفصل عنه" (رشيد بن مالك، 2001).

وبهذا يستعرض بالتحليل ميكانيزمات البرنامج السردى الذي يبني على سلسلة من الحالات والتحويلات المنتظمة على أساس العلاقة الرابطة بين الفاعل والموضوع وتحويلها، وإنّ كل تحويل وصلي يفرضي حتما إلى إحداث تحويل فصلي للفاعل المقابل وقد يتحول البرنامج السردى البسيط إلى برنامج معقد.

وتستمد هذه البرامج السردية حركيتها من طاقات يملكها الفاعل تنبني أساسا على رسم سردي ينظم تعاقب الملفوظات في شكل أطوار أربعة متماسكة البناء ومرتبطة فيما بينها ارتباطا وثيقا خاضعا لمبدأ التدرج والافتراضات المنطقية: التحريك، الكفاءة، الأداء والتقويم.

يتبين لنا إذن من خلال الدراسة أنّ رشيد بن مالك لم يخص الحديث عن السيميائيات السردية عند غريماس فقط بل عمل على قراءة بعض التنظيرات السيميائية لباحثين آخرين وترجمة نصوصهم. ونشير الى نوع آخر من البحث عند العرب الذي ذهب بعيدا وانتقل في السيميائيات الغريماشية من النظرية الى التطبيق وتجاوز النقل والتعريف التنظيري للمنظومة الإصطلاحية لنظرية غريماس وهذا ما لاحظناه عند الباحث "عبد المجيد نوسي" في عمله المعنون: (التحليل السيميائي للخطاب الروائي) (عبد المجيد نوسي، 2002)، حيث عمل على تطبيق المفاهيم الإجرائية للمنهج السيميائي على رواية "اللجنة" للروائي صنع الله ابراهيم الذي تميّز مساره بكتابة نصوص شكّلت لحظات أساسية في تاريخ الرواية العربية والمصرية من حيث طرح إشكال الكتابة والبحث في عناصر البناء والاشتغال بشكل تنصهر فيه مكونات الخطاب الروائي من لغة سرد وعناصر الزمان والمكان والشخصيات لتأسيس فضاء متخيّل.

ويستند هذا الباحث في دراسته التطبيقية على أعمال المدرسة الفرنسية وخصوصا على أعمال غريماس ومثلما يشير أنّ عمله لن يتوقف عند الاستثمار الانتقائي لمستوى من مستوياتها مثل المستوى العميق أو المستوى العاملي أو لمفهوم من مفاهيمها الإجرائية مثل مفهوم المربع السيميائي أو التشاكل، ولكنه سيستثمر معطيات النظرية في تعالق كل مستوياتها، بدءا من المكون العميق الى البنية الأولية للدلالة، الى البنية التركيبية.

نلاحظ من خلال تتبعنا لهذه الدراسة أنّ الباحث لم يتقيد بالأسس الإجرائية التي وضعها غريماس بل استثمر كل ما أنتجته المدرسة الفرنسية من أبحاث، واللافت للانتباه أن المؤلف يدعم عمله التطبيقي بأقوال تنظيرية لأصحابها من أجل التوضيح وربط القارئ بالأصول، ولكنه يسقط في الكثير من الأحيان في التنظير على حساب التطبيق. وما يثير الاضطراب في ذهن القارئ هو توظيفه في الكثير من المرات لمصطلحات أخرى غير التي عرفناها مع الساحة النقدية، ويظهر التعقيد أكثر عندما دمج بين كل ما أنتجته المدرسة الفرنسية بشقيها اللساني والأدبي.

4. فعل الترجمة والمصطلح السيميائي عند الباحثين العرب: انطلاقا من قراءتنا المفصلة لهذه الأبحاث في السيميائيات السردية الغريماشية نصل إلى نتيجة مفادها عدم توحيد الباحثين للمنظومة الإصطلاحية المستعملة بحيث وضع سعيد بنكراد مصطلحات خاصة به فيترجم مثلا مصطلح "الفاعل" الذي ترجمه "العجيمي" "العامل" (Actant) والمربع السيميائي " (carré sémiotique)" "النموذج التكويني" وفي طبعة أخرى لنفس العمل (منشورات الزمن) يوظف كلمة "النموذج التأسيسي" (Modèle)

(constitutionnel) وبالمقابل يترجمه العجيجي ب"المربع الدلالي"، كذلك في ترجمته لعناصر النموذج العاملي (Modèle actanciel) وظّف العجيجي مقابل المرسل (Destinateur) والمرسل إليه (Destinataire) "المؤتي" و"المؤتي إليه" ويصبح هذا الاختلاف في ترجمة المفهوم الواحد إلى عدة مصطلحات هو بمثابة الإعاقة التي ستباعد القارئ العربي من هذه النظرية.

كما أنّ هناك الكثير من المفاهيم المثيرة للجدل في هذه النظرية بين دارسها فمفهوم "الفاعل" مثلا يصنّف ضمن المحور السردى في المستوى السطحي باعتباره وحدة تركيبية نحوية، إلّا أننا نجد مع ذلك لا يكتسب صفته تلك إلّا بتحميله دلالة الفاعلية الكامنة بدورها في المستوى العميق، والأمر نفسه ينطبق على مفهوم "المكون التصوري".

نسجل كذلك أثناء تفحصنا لهذه النماذج من الأبحاث السيميائية العربية أنّنا لا يمكن تصنيفها في نفس المرتبة، بحيث نلتمس في دراسة سعيد بنكراد الكثير من التعمق والإلمام الكبير بجميع عناصر نظرية غريماس على الرغم من أنّ الإحاطة الشاملة بهذه الأخيرة سواء أكان ذلك في أصولها العلمية أم في مفاهيمها الإجرائية وحدود هذه الأسس ليس بالأمر السهل، وشساعة هذه النظرية ونزعتها الشمولية وتشعب مصادرها المعرفية والفلسفية وتداخلها واختلاف منابعها التي استندت إليها في بناء جهازها المفهومي، يعدّ من أكبر العقبات التي تحول دون الإمساك بروح هذا المشروع والقبض على كل جوانبه وجزئياته، بالإضافة إلى هذه الصعوبات نشير إلى ذلك الجدل الذي كثيرا ما يثار حول بعض طروحات هذا المشروع ومفاهيمه، بل و جدوى الآفاق التي فتحتها أو يمكن أن يفتحها في وجه دارسي النصوص الأدبية المختلفة.

بينما تأتي دراسة العجيجي ورشيد بن مالك جزئية غير ملامّة بكل أسس ومبادئ سيميائيات غريماس، على الرغم من الوضوح الذي تميزا به في طرحهما، فقد اعتمد بنكراد في بحثه لغة التعقيد التي لا تصلح للمتلقي بكل سهولة، حيث لم يدعم هذه الأسس النظرية البحتة بنماذج تطبيقية توضيحية مثلما فعل "العجيجي" الذي كان عمله بسيطا واضحا مدعّما بمقاطع نصية تطبيقية مستمدة من نص "الأرانب والفيلة"، بحيث عمل على تتبع مقاطع هذه الحكاية الشعبية بالتحليل والوقوف عند برنامجها السردى البسيط السهل التحديد الذي يتمحور في موضوع البحث عن الماء وتنجح الذات الفاعلة (فيروز) بذكائها تحقيق الهدف والاتصال بالموضوع، مثلما استوقفته في الحكاية أيضا الأقطاب الدلالية ودرس الأقطاب الدلالية لتنعكس البنية الداخلية العميقة للنص التي تنتظم في ثنائيات العطش والارتواء-خوف الأرانب من الهلاك تحت أقدام الفيلة.

لكن ينبغي أن نشير من خلال هذه الدراسة التطبيقية أنّ المسألة أعقد بكثير من هذا واختيار الباحث لهذا النص قد يصلح للقارئ المبتدئ لشرح المفاهيم الأولية وتبسيطها في ذهنه بينما المشروع السيميائي لغريماس أعمق بكثير في محاولته تبيان إستراتيجيات بناء المعنى في النصوص السردية

المختلفة، بحيث يستمد النص السردى تماسكه الدلالي من وجود بنية عميقة موظفة كبنية كبرى للنص وكذا من وجود منطق سردي ينظم العلاقات بين الوحدات السردية كما تبدو من خلال الخطاب، وينبغي حسب غريماس التسليم بفكرة مفادها " أنه بإمكان البنى السردية أن تظهر في مواقع أخرى خارج نطاق التجليات الدلالية التي تتم في اللغات الطبيعية: في اللغة السينمائية والخيالية وفي الرسم التشكيلي الخ.." (أ.ج.غريماس، 2000).

كما نصل إلى أنّ الباحث العربي في مجال السيميائيات توقف دوره على نقل أسس هذه النظريات المختلفة التي ينتجها الغرب ولم يسجل في أعمالهم آراء نقدية معارضة أو مناقشة لهذه المفاهيم، فاقصر الأمر على الفهم والترجمة وهذا غير منطقي تماما، إذ ما يخلق في ثقافة فكرية وفلسفية وايدولوجية معينة لا يصلح دائما لثقافة فكرية أخرى بطريقة مطابقة، ولا يقتصر دور المترجم على التحكم في القواعد اللغوية للنص الأصلي ولكنه ينبغي أن يضع في اهتماماته أثناء فعل الترجمة العناصر الثقافية بالمعنى الواسع للكلمة، بحيث إنّ الترجمة لا تتم بين لغتين وإنما بين حضارتين وثقافتين مختلفتين لهذا تعتبر كل ترجمة سليمة هي بمثابة مساهمة نقدية في فهم النص الأصلي.

لقد كان لفعل الترجمة لسيميائيات غريماس على الخصوص الأثر السلبي الى حدّ بعيد في الوطن العربي أوقع القارئ العربي في اضطراب وحيرة أمام كثرة المصطلحات وتشعبها وتعقيد المفاهيم وقلة النماذج التطبيقية التي تبين مدى نجاعة هذه الآليات الإجرائية على مستوى النصوص الإبداعية العربية خاصة، ويمكن إرجاع هذا الإشكال الى تشتت جهود الباحثين وعدم توحيد نتائج البحوث، ولا توجد مؤسسة أو مجلس لمراقبة والنظر في هذه الترجمات وتوحيد المصطلحات وتظهر هذه الأبحاث في الساحة النقدية منفردة شخصية خاصة بكل باحث وهذا ما خلق عددا هائلا من المصطلحات ولا يجد القارئ نفسه في هذا العالم الذي تشبه الفوضى ولا يعرف ماذا يختار وأين الصحيح من الأصح وهذا ما عقّد هذه النظرية أكثر عند الباحث العربي..

5. خاتمة: نسجل في الأخير وننوّه بمجهودات الباحثين العرب في هذا المجال وإسهامهم في نقل هذه النظرية السيميائية بكل تشعباتها وتعقيداتها، وخاصة نظرية غريماس التي لم يعمل صاحبها على جمع أسسها في كتاب موحد بل تمتد نظريته على مجموعة هامة من الدراسات المنشورة في مؤلفات مستقلة أو ضمن مجلات مختصة. وقد استثمر الدارس العربي بعد كل هذه السنوات المفاهيم السيميائية المختلفة واستطاع وبفعل حركة الترجمة أن تنتقل نظرية غريماس الى القارئ العربي وأن ينتقل من النظرية إلى التطبيق وتتجاوز هذه الآليات الإجرائية الى حدّ بعيد مع النصوص الإبداعية العربية المختلفة على الرغم من اختلاف الخلفية الفلسفية والفكرية التي أسست لظهورها والثقافة الفكرية التي أطرت هذه النصوص الإبداعية في عمقها، وهذا ما يحملنا إلى القول إنّ الفكر الإنساني موحد في أساسه العميق.

6.الهوامش:

- 1- رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، (د ط) الجزائر، 2001، ص-56
- 2- سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، الطبعة الثانية، الجزائر، 2003، ص-5
- 3- يوسف نور عوض، علم النص ونظرية الترجمة، دار الثقة، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، 1977، ص-76
- 4- المرجع نفسه، 79
- 5- بيترونيو مارك، اتجاهات في الترجمة، جوانب من نظرية الترجمة، تر-محمود إسماعيل صيني، دار المريخ، الرياض المملكة العربية السعودية، (دس)، ص-44
- 6- عبد الله حراصي، في ترجمة الاستعارة العربية، مجلة نزوة، العدد3 www.nizwa.com
- 7- أكرم مؤمن، أصول الترجمة للمحترفين، مكتبة لسان العالم الاليكترونية، 2016، ص6
- 8- رشيد بن مالك، البنية السردية، ص-55
- 9- سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائية السردية، ص-7
- 10- المرجع نفسه، ص-8
- 11- المرجع نفسه، ص-28
- 12- المرجع نفسه، ص-29
- 13- المرجع نفسه، ص-31
- 14- Greimas ,courtes -sémiotique, dictionnaire raisonné de la theorie du langage, hachette université ,paris1979
- 15- سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائية السردية، ص-37
- 16- سعيد بنكراد، السيميائيات السردية –مدخل نظري-منشورات الزمن، المغرب، 2001، ص-71
- 17- Greimas -sémantique structurale ,recherche de methode ,larousse,1966,p-84-85-17
- 18- محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردى نظرية قريماس، عالم الكتاب، تونس 2006، ص-
- 19- المرجع نفسه، ص-36
- 20- رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، ص-8
- 21- المرجع نفسه، ص-15
- *يراجع عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، -البنيات الخطابية-التركيب – الدلالة-، دار النشر المدارس الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 2002

22- يراجع- أج.غريماس، في المعنى (دراسات سيميائية)، تعريب نجيب غزاوي، مطبعة الحداد، اللاذقية، سوريا 2000 ص-12

6. قائمة المراجع:

1. أج.غريماس، في المعنى(دراسات سيميائية)، تعريب نجيب غزاوي، مطبعة الحداد، اللاذقية، سوريا 2000.
2. أكرم مؤمن، أصول الترجمة للمحترفين، مكتبة لسان العالم الاليكترونية، 2016.
3. بيتر نيو مارك، اتجاهات في الترجمة، جوانب من نظرية الترجمة، تر: محمود إسماعيل صيني، دارالمريخ، الرياض المملكة العربية السعودية، (دس).
4. رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة، (د ط) الجزائر، 2001.
5. سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، الطبعة الثانية، الجزائر، 2003.
6. سعيد بنكراد، السيميائيات السردية –مدخل نظري-منشورات الزمن، المغرب، 2001.
7. عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، -البنيات الخطابية-التركيب – الدلالة-، دار النشر المدارس، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 2002.
8. محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردى نظرية قريماس، عالم الكتاب، تونس 2006.
9. يوسف نور عوض، علم النص ونظرية الترجمة، دار الثقة الطبعة الأولى مكة المكرمة، 1977.
10. عبد الله حراصي، في ترجمة الاستعارة العربية، مجلة نزوة، العدد3 www.nizwa.com

المراجع باللغة الأجنبية

1. Greimas ,courtes :sémiotique, dictionnaire raisonné de la theorie du langage, hachette université ,paris1979
2. Greimas :sémantique structurale ,recherche de methode ,larousse,1966.

